

ذكرى المولد النبوي

من مشاهد عكاظ المؤثرة^(١)

للأستاذ سعيد الأفغاني

استيقظت مكة ذات صباح ، بعد عام الفيل بأربعين ، على جرس حلو ساحر ، يرسله محمد الأمين داعياً قومه إلى الله وحده ، وأن ينددوا ما هم فيه من عبادة أصنام وواد بنات وقتل أولاد ، وأن يقبلوا على ما يشبع فيهم المحبة والسعادة ويوطد لهم المجد والعزة في العالمين .

استمع مشركو مكة إلى هذا الرجل الذي كان حياً إلى قلوبهم ، عظيم المنزلة في صدورهم ، مضرب المثل بينهم في علو الخلق وطهارة السيرة وصفاء السريرة ، فظفر بعض إلى بعض مكبرين ما أنى به ابن عبد المطلب سيد قتيان هاشم ورجل مكة المنتظر .

ونزت في تلك الرموس حية جاهلية استعصى قيادها على البيان الساحر والعقل الوافر والحرص المخلص ، فعظم عليها أن تترك ما ألفت ، وتألبت قوى أهل مكة جيوشاً متضافرة تكيد لهذا الداعي إلى الخير ولأولئك القانتين الخجنتين من الضعفاء والنساء والصبيان ، الذين ملكت عليهم الدعوة الجديدة شعورهم وتغلغل صوت الإله في أعماق نفوسهم فصفاها وأخلصها ، ليكون منها الهدف الأول الذي يصمد في سبيل العقيدة الحق للأذى والتشريد والتجريح والتعذيب بصبر عجيب وإيمان صليب واغتراب متزايد ، كأنما يجدون في هذه الآلام نعيماً ولذا نذ . فكانت مصابرتهم وثباتهم خير ما ضمن نجاح الدعوة وتقاطر الناس عليها فيما بعد .

إلا أن الأذى عظمت ، وأبى المشركون إلا إصراراً واستكباراً وصدأ عن سبيل الله من آمن به ، وكادت تنسرب شوائب من يأس إلى بعض تلك النفوس العظيمة ، لولا بارقة أمل لاحت لهم في قصد قبائل العرب بالمواسم في عكاظ وبجدة وذى الحجاز .

وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مبعثه ثلاث سنين في عكاظ ، يدعو الناس إلى الخير والهدى والسعادة . وقد

(١) من كتابنا (أسواق العرب) الذي تصدره في هذه الأيام : المكتبة الهاشمية بدمشق ، بتصرف قليل

لزمه منذ قيامه بالدعوة حزن عميق على قومه الذين كفروا بنعمة الله ، وآله ألا يراهم مسارعين إلى ما به صلاحهم ، فعزم ليقصدن المراسم وليأتين فيها القبائل ، كل قبيلة بمنزلها ، وكل جماعة في حبيم ، يعرض عليهم هذا الدين الجديد . ولقد حرص الحرص كله على أن يهتدوا ، وكان أسفه يشتد كلما ألح قومه بالصد . قام في عكاظ يقول :

« يا أيها الناس : قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا ، ويقعه رجل له غد يرتان كأن وجهه الذهب وهو يقول : « يا أيها الناس ، إن هذا ابن أخي وهو كذاب فاحذروه . » فعرف الناس أن هذا (الصاد عن سبيل الله) هو عمه أبو لهب ابن عبد المطلب ، يكذبه كلما قال كلمة الحق .

عازد والرسول الدعوة مراراً فلم يجب ولم يأس ، ورجا أن يجد فيهم الحامي والمجير على الأقل إذ لم يجد المحيبي ، فكان يقول للحى في موسم عكاظ :

« لا أكره منكم أحداً على شيء : من رضى الذي أدعوه إليه قبله ، ومن كرهه لم أكرهه ؛ إنما أريد أن تحوزوني بما يراد بي من القتل ، فتحوزوني حتى أبلغ رسالات ربي ويقضى الله لي ولن صحبني بما شاء (١) . »

كانت الناس يعجبون من أمره وأمر عمه ، وهم بين راض وغاضب ، ومتعجب يرى بعينه ثم يمضي كأن الأمر لا يهمه . منهم من لا ينكر ما يسمع ، ومنهم من يرد أقبح الرد ، ومنهم من يقول : قومه أعلم به .

كان هذا دأبه أبداً ، يوافق به القبائل سنة بعد سنة ، حتى إن منهم من قال له : « يا أيها الرجل ، أما آن لك أن تيأس ؟ » من طول ما يعرض نفسه عليهم .

انتهى رسول الله في تطوافه على القبائل في عكاظ ، إلى بني محارب ابن خصفة ، فوجد فيهم شيخاً ابن عشرين ومائة سنة ، فكلمه ودعاه إلى الاسلام وأن يمنعه حتى يبلغ رسالة ربه ؛ فقال الشيخ : « أيها الرجل قومك أعلم بذنك . والله لا يؤوب بك رجل إلى أهله إلا آب بشر ما يؤوب به أهل الموسم ، فأغبن عنا نفسك . » وإن أبا لهب لقائم يسمع كلام المحارب .

ثم وقف أبو لهب على المحارب فقال : ولو كان أهل الموسم كلهم مثلك لترك هذا الدين الذي هو عليه ، إنه صابئ كذاب . »

(١) دلائل النبوة ص ١٠٢

قال المحارب : « أنت والله أعرف به ، هو ابن أخيك ولحنك . »
ثم قال : « لعل به يا أبا عتبة لمأ ، فإن معنا رجلاً من الحى
يرتدى لعلاجه . » فلم يرجع أبو لهب بشئ . (١) .

روى عبد الرحمن العمارى عن أشياخ من قومه قالوا :
« أنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بسوق عكاظ فقال :
- من القوم ؟

قلنا : - من بنى عامر بن صعصعة .

- من أى بنى عامر ؟

- بنو كعب بن ربيعة .

- كيف المنعة فيكم ؟

- لا يرام ما قبلنا ولا يصطلى بنا رنا .

فقال : « إني رسول الله ، فإن أتيتكم تمنعونى حتى أبلغ رسالة
ربى ولم أكره أحداً منكم على شئ . »
قالوا : - ومن أى قريش أنت ؟

- من بنى عبد المطلب .

- فأين أنت من بنى عبد مناف ؟

هم أول من كذبني وطردني

قالوا : - ولكننا لانطردك ولا تؤمن بك ، وتمنعك حتى
تبلغ رسالة ربك .

فقال : « فقول إليهم والقوم ينسوقون ، إذ أناهم بحجرة بن قيس القشيري
فقال :

- من هذا الذى أراه عندكم أنكره ؟

قالوا : - هذا محمد بن عبد الله القرشى .

- ما لكم وله ؟

- زعم لنا أنه رسول الله ، يطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ
رسالة ربه .

- فإذا رددتم عليه ؟

- قلنا فى الحب والسعة ، تخرجك إلى بلادنا ونمنعك ، ما
نمنع به أنفسنا .

قال بحجة : - ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشئ
أشهر من شئ ترجعون به . بدأتم لتنايذكم الناس وترميكم العرب
عن قوس واحدة . قرمه أعلم به ، لو أنسوا منه خيراً لكانوا أسعد
الناس به . تعمدون إلى رهيق قوم قد طرده قومه وكذبوه
فتوونونه وتنهرونه ؟ فبئس الراى رأيتم .

ثم أقبل على رسول الله فقال : « تم الحق بقومك ، فوالله

لولا أنك عند قومى لضربت عنقك . »

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ناقته فركبها ، فغمر
الحبيث بحجرة شاكلتها فقصص برسول الله فألقته . وعند بنى عامر
يومئذ ضياعة بنت عامر بن قرط ، كانت من النسوة اللاتي أسلن
مع رسول الله بمكة ، جاءت زائرة إلى بنى عمها فقالت : « يا آل عامر
ولا عامر لي ! أبصنع هذا برسول الله بين أظهركم لا يمنعه أحد
منكم ؟ »

فقام ثلاثة نفر من بنى عمها إلى بحجرة ، وثلاثة أعانوه ، فأخذ
كل رجل منهم رجلاً فجلد به الأرض ثم جلس على صدره ، ثم
علقوا وجوههم لها ، فقال رسول الله :

« اللهم بارك على هؤلاء ، والعن هؤلاء . »

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كان
أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافي معهم الموسم ، فكانوا إذا
رجعوا إليه حدثوه بما يكون فى ذلك الموسم ، فلما قدموا عليه
سألهم عن من كان فى الموسم فقالوا :

« جاءنا قتي من قريش ثم حدث أنه أحد بنى عبد المطلب
يزعم أنه نبى ، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به سمنا
إلى بلادنا . »

فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال :

« يا بنى عامر : هل لها من تلاف ؟ هل لذنا بها من تطلب ؟
فوالذى نفس فلان بيده ، ما تقولها لإسماعيل قط . ألا إنها الحق ؟
فأين كان رأيكم ؟ (١) . »

هذه الأسواق الثلاث : عكاظ ومجنة وذو الحجاز ، التى كانت
تقوم فى أيام الحج ويؤمنها العرب قاطبة من كل حذب وصوب ،
شهدت إلى جانب مناظر البيع والشراء والمفاخرة والانشاد .
مشهداً من أفضع مشاهد الجفاء والتكروا الذى لصاحب الشريعة
الإسلامية صلى الله عليه وسلم . ابتلعت تلك الأصوات بضجيجها
وما كانت تسمع به من حوادث ، صوت الدعوة الإسلامية فيما
ابتلعت من دعوات ، وغاب صوت صاحبها فى ذلك الصخب
والزحام ؟ فلقد مكث الرسول بمكة مستخفياً ثلاث سنين ، ثم
أعلن فى الرابعة ودعا الناس إلى الإسلام عشر سنين يوافي فيهن
المواسم كل عام ، « يتبع الحاج فى منازلهم بعكاظ ومجنة وذو الحجاز
يدعوهم أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ، فلا يجد أحداً ينصره
أو يجبه ، حتى إنه ليسال عن القبائل ومنازلها قبيلة فيردون

العقبي إلا الحق . وأهون بعد ذلك بالمجاهدات والمراسم وصكوك الانتدابات وسائر القصاصات من أوراق الزور . كل أولئك يضمحل ويذوب متى سلط عليه الإخلاص والثبات وصلابة العقيدة والایمان . وما نرى في أيامنا هذه من استضعاف الباطل المعتر بالصولة ، لأناس وقفوا يدعون النضال في سبيل الحق ، واستخذاء هؤلاء له ، وطواعيتهم في يديه ، ناشئ من فقدان الاخلاص والعقيدة فيما يضمرون . ولعل كثيراً منهم يظهر دفاعاً عن حق ، ويطن سعيًا إلى منصب أو استدراراً لمال . وما أسرع ما ينزع الزمان الاثواب المزورة عن هذا الفريق فيظهر للناس ما يخفون .

ولنعلم بعد أن اليأس لا يبنى أن يجد ميلاً إلى قلب المؤمن ، وأنه : « لا يأس من روح الله إلى القوم الكافرون ،

« دمشق » سفير الأفغانى

في الطريق

كتاب جديد يصدر في سبتمبر

بقلم الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى

أكثر من ٦٠ قصة في ٥٠٠ صفحة

قيمة الاشتراك فيه ١٠ قروش ، اثنان بعد الطبع ١٥ قرشاً

ترسل قيمة الاشتراك بعنوان المؤلف

بشارع فاروق رقم ٢٢١ بمصر

الاشتراك بقفل في منتصف أغسطس

كتب الهدايا للمشتركين

نشرنا في غلاف العدد الماضى قائمة بالكتب التى يختار من بينها المشترك الذى أدى اشتراكه على مقتضى الشروط المعلنة كتاباً يرسل إليه على حسابه . فنرجو الرجوع إلى ذلك العدد .

عليه أقبح الرد ، ويؤذونه ويقولون له : قومك أعلم بك (١) ، كان قاصد هذه الأسواق أيام الحج موزع السمع بين داع إلى ثأر وناشد ضالة ، ومنشد قصيدة ، وخطيب ، وعارض بضاعة ، وحامل مال لثك أسير ، وقاصد شريف لإجارة أرحالة ، وداع إلى عصية ، وأمر بمنكر . . . فيجد شيئاً معروفاً قد ألفه منذ عقل وأبصر الدنيا . لكنه بعد عام الفيل ثلاث وأربعين سنة يجد أمراً لم يالفه قط ، ولا سمع بمثله : رجلاً كهلاً وضيقاً عليه سمات الوقار والرحمة والخير ، يسأل عن منازل القبائل قبيلة : هذه بنو عامر بن صعصعة ، وهذه محارب ، وتلك فزارة ، والرابعة غسان ، وهناك مرة وحنيفة ، وسليم ، وعيس ، وهنا بنو نصر وكندة ، وكعب ، وعذرة ، وهؤلاء بنو الحارث بن كعب وأولئك الحضارمة . . . الخ

يؤم منازل كل قبيلة ، ويقصد إلى شريفها يدعو بالرفق إلى الله وفعل الخير فيتجهم له هذا ويعبس ذاك ، ويجبه ذلك ، ويحقره آخر . . فيلقى من الصد ألواناً يضيق ببعضها صدر الحليم ، فلا يؤيسه مالتى ، ولا يكفه ما أودى ، فيمضى متدأً حزيناً إلى قبيلة أخرى وشريف آخر : يعرض عليهم نفسه ويقول :

« هل من رجل يحملنى إلى قومه ، فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ كلام ربى . فلا يجد مجيئاً ، حتى تدارك الله نبيه يوفد الانصار .

هذا ما حفظته لنا كتب السيرة من مشاهد مؤثرة ، فرأينا أن تلك الأسواق لم تخل من دعوة إلى خير ، فقد ترددت في أجوائها الصوت الضعيف الخافت ، يطلب حماية وإجابة . ولئن صدق عنه الناس واذوروا في أسواق الجاهلية ، إنه ملاً فيما بعد ما بين المشرق والمغرب ، وطبق الحافقين بآثاره التى بثها في العالمين رحمة وعدلاً وعدلاً ، وإنسانية وسعادة ومثلاً علياً .

وما زال يستجيب لهذا الصوت كل يوم أفواج من أمم الحضارة والعرفان ، في آسيا وأوروبا وأمريكا . صد عنه قديماً أجلاف البادين ، وهرع إليه اليوم زمر المنحضرين ، من كل عالم ومخترع ومصلح وأديب وسياسى ومفكر . . ممن يستضيء بعلمهم وفكرهم الملايين من الخلق .

فلنأخذ من هذه الأسواق العبرة ، ولنحفظ هذا الدرس ؛ فإن الحق مهما بدا ضعيفاً وبدا خصيماً الباطل قوياً صائلاً ، لا بد أنه ظافر في النهاية عليه . فليس في الدنيا شيء يصمد للحق ، لا الجيوش ولا الأساطيل ، ولا النار ولا الحديد ، لا شيء له